

المحاضرة رقم 3 في المناهج النقدية ماستر 1 س 2، مستويات التحليل البنيوية

تبقى أفكار العالم اللغوي السويسري "دي سوسير" منطلقات مهمة لكثير من التوجهات النقدية؛ حيث قدم هذا اللغوي مجموعة من المحاضرات أملاها على تلامذته في الدراسات اللغوية "بجنيف"، والتي أصبحت فيما بعد مبادئ أساسية للفكر البنيوي.

ظهرت الشعرية كمنهجية شاملة مسّت جميع العلوم في نظام دقيق، من شأنه أن يحل الظواهر بكلّ أنواعها تحليلا علميا كما هو الحال في الفيزياء، والرياضيات، والأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع، والفلسفة، والأدب.

أهم فكرة ارتكزت عليها البنيوية هي البحث في العلاقات التي تسود بين الأجزاء و"... تحدد النظام الذي تتبعه الأجزاء في ترابطها والقوانين التي تنجم عن هذه العلاقة و تسهم في بنيتها في الوقت نفسه، فكل بنية هي لا محالة مجموعة علاقات تتبع نظاما معينا مخصوصا".

وهكذا لم تعد البنيوية تبحث في ماهية الشيء، بقدر ما بدأت تثير جملة من الأسئلة تتعلق بـ "... كيفية ترابط أجزائه وعملها مجتمعة".

من القضايا الأساسية التي آثارها "دوسوسير"، و تحوّلت إلى كشف في حقل الدراسات اللغوية ، هي تمييزه بين ثلاثة مفاهيم للغة ، "... اللّغة (Langage) بشكل عام (أي ما هو طبيعي في الإنسان ، أو ملكة الإنسان وقدرته على خلق الإشارات و العلامات واختراعها ... ثم اللّغة كنظام قائم (Langue) مثل اللّغة

العربية أو الفرنسية ، ثم الحدث اللغوي الفردي (Parole) الذي يمارسه متكلم لغة ما".

لقد شهدت البنية الصنفين الأخيرين ، ومن إضافات " دوسوسير" في توجيه الفكر اللغوي البنيوي تمييزه بين محورين :

" محور تاريخي تطوري من ناحية يركز على دراسة الظواهر في مسارها ... وتحولاتها المختلفة و محور تزامني و صفي يعين بتحليل نظام الظواهر في لحظة زمنية معينة بغض النظر عن تاريخها السابق و تطورها اللاحق ."

إلى جانب فعالية " دوسوسير" في دفع حركة البنيوية ، هناك مدارس أخرى أسهمت بدورها في إغناء الشعرية في تشكيلها و منها مدرسة الشكليين الروس التي و جدت في روسيا في العشرينيات من القرن الماضي ، و قد ركزت هذه المدرسة في أطروحاتها على الشكل الأدبي ، الذي يقترب كثيرا من مفهوم البنيوية ، و من أسباب وجود هذه المدرسة إيقاف التغييرات الإيديولوجية المبالغ فيها أثناء المقاربات التحليلية، مما أفقد كثيرا من النصوص الأدبية جمالياتها و ابداعها ، و من الشخصيات المهمة الأخرى التي كان لها الفضل في بلورة الشعرية ، شخصية " رومان جاكوبسون" الذي ولد في حضان الشكلايين الروس ، لينتقل بعدها إلى حلقة براغ اللغوية في الثلاثينيات ثم انتقل في الأربعينيات و الخمسينات إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

منهجية أخرى في العالم الغربي تعمل هي الأخرى على التأسيس لما يسمّى بـ "مدرسة النقد الجديد" التي أسفرت عن نتائج باهرة قريبة من نتائج الفكر اللغوي و الأدبي في أوروبا الشرقية.

وما دفع - أكثر - الفكر البنيوي إلى الازدهار هو ما حصل بين العالم الكبير " ليفي ستراوس" و"جاكوبسون" من تفاهم حول جملة من الأطروحات اللغوية ، فكتبا تحليلا بنيويا مشتركا حول " سونيت القطط " لـ " بودلير" ، الأول بمحموله الأسطوري والأنثروبولوجي والحكائي والثاني بمحموله اللغوي والصوتي والإيقاعي ويلتقيان لتفكيك نص شعري لأحد أكبر الشعراء الفرنسيين.

لم تعد البنيوية تبحث في التاريخ و لا في السير و لا في خارج النص ، بل أصبحت تستحضر اللّغة في كل تعاملاتها ، و "... ذلك لأن طبيعة المادة المكونة للأدب في التحليل النقدي الأخير كانت هي اللّغة، فالأدب لا يتكون من أفكار ولا مشاريع ولا آراء ، وإنما هو جسد لغوي ممثل للنص الأدبي .

ومن ثمّ فإن أي مقارنة لتحليل هذا الأدب بمنهج علمي كان من المفروض عليها أن تبدأ من منطلق اللّغة ، لا من منطلق ما وراء اللّغة ، من فكر وميتافيزيقا وأشياء أخرى لا ترتبط بالمادة المباشرة للأعمال الأدبية ."

على هذا الاعتبار تأسست البنيوية في النقد الأدبي على مجموعة مبادئ :

أولا : اعتبار المحور التاريخي في الدراسات الأدبية محورا مشبعا ، لم يعد هناك ما يبرره ... خاصة على يد هؤلاء الأيديولوجيين الذين أسرفوا في تحويل كل شيء إلى تاريخ.

ثانيا : يتركز النقد في دراسة الأدب باعتباره ظاهرة قائمة في لحظة معينة تشمل نظاما شاملا ، والأعمال الأدبية تصبح حينئذ أبنية كلية ذات نظام، وتحليلها يعني إدراك علائقها الداخلية ودرجة ترابطها والعناصر المنهجية فيها و تركيبها بهذا النمط الذي تؤدي به وظائفها الجمالية المتعددة.

ثالثا : ارتبطت البنيوية كما أسلفنا سابقا بـ "جاكوبسون" ، الذي حلّ وظائف اللّغة طبقا لمنظومة المرسل والرسالة والمرسل إليه وقناة التواصل و الشفرة ، وتمثلت وظائف اللّغة في ستة أبعاد، أبرزها الوظيفة الشعرية التي توجد بمقادير مختلفة في كل لغة أدبية و في كل جنس أدبي.

لقد أثرت مفاهيم البنيوية على كثير من المعتقدات الفكرية والأدبية؛ حيث أماطت اللثام عن ما يسمّى بالعبرية ، و إنما ركزت على تحكم الكاتب في الصيغ والأساليب و قوانين الكتابة ليس إلّا ، كما لم تعد تشير البنيوية إلى الخارج ، أو ما يسمى بالمحاكاة، بقدر ما حوّلت الأنظار إلى النصّ في حد ذاته، حيث دعت الجميع إلى تأمل ألفاظه و صورهِ و البحث في العلاقات التي أنتجت لنا الاستعمالات الجمالية، كما دعت البنيوية القارئ إلى الانخراط في العمل بالأدوات وليس بالخلفيات الإيديولوجية ، وفي ضرورة أن يحمل معه مفاتيح نقدية يحل بها الشفرات، دون النظر في قصدية الكاتب، لأن الكاتب مات بعد نشره للعمل. و بالرغم من كل انجازات البنيوية من الشكلانية الروسية، و شعرية دائرة براغ، و انثروبولوجية لفي ستراوس، وممارسات بارت وتزنفيتان تودروف و جيرار جنيت و رومان جاكبسون...

بالرغم من كل هذا المسار الطويل في هذا الحقل اللغوي و النقدي ، تلقت الشعرية اتهامات تتعلق بتكريسها للشكلية على حساب المضمون؛ حيث أضحت عبارة عن مخططات ورسومات و حسابات أفرغت النص من روحه، ويستندون في ذلك إلى تخلي الكثير عن طروحاتها ومنهم البنيوي " رولان بارت" فهو بنفسه عام 1971 رفض علمية البنيوية، وكل محاولات التنظيم في دراسته الشعرية (5/2) و وصفها جاك دريدا بالتجريد والاختزالية، ووصمها تودروف بقتل المعنى، في كتابه الأخير؛ "الأدب في خطر".

ونتيجة لمأزق البنيوية الشكلانية، خرجت من عباءته البنيوية التكوينية أو التوليدية، التي وقفت بين الشكل والأسس الماركسية والجدلية ، ومن الذين عملوا على تأسيس هذا التوجه جورج لوكاش، وبيير بورديو، ولوسيان جولدمان الفرنسي الروماني الأصل، الذي استفاد من كل المنجزات الماركسية و الجدلية، والأطروحات الفلسفية لكانط و هيجل ، و أفكار بياجيه ولوكاش.

ومن أهم الملامح النقدية عند جولدمان مايسمى برؤيا العالم ، حيث "... كلما ازدادت قدرات المبدع ازداد اقترابه من تلك الرؤية و صدق تمثيله لها ، حتى و إن لم يع ذلك " .

لم تبق البنيوية محصورة في أوروبا الشرقية أو في الغرب، بل كان لها حضورها المميز في خارطة النقدية العربية، و أهم الأسماء التي اشتغلت بالبنيوية تنظيرا وتحليلا نذكر صلاح فضل، وجابر عصفور، ونبيلة ابراهيم، وكمال أبو ديب، وعلي

العبد، وخالدة سعيد، وعبد الله الغدامي، ومحمد مفتاح، ومحمد عبد المطلب، وعبد
المالك مرتاض، ومحمد برادة ، وسيزا قاسم ...و آخرون.